المحاضرة (08)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: الوحدة العضوية

المدةُ: ساعة

الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ماستر، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

تَمْهِيدٌ:

الخِطَابُ الشِعْرِيُ نِظَامٌ تَرْكِيبِيٌ، يَنْتَظِمُ ضِمْنَ سِلْسِلَةٍ مِنَ الجُمَلِ المُتَّسِقَةِ والمُنْسَجِمَةِ دَلاَلِيًا وإِيقَاعِيًا، مِنْ خِلاَلِ شَبَكَةِ العَلاَقَاتِ الدَلاَلِيَةِ لِلخِطَابِ، وإِنَّ شِعْرِيَةَ الخِطَابِ -كَمَا تَرْتَكِزُ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهَا، عَلَى المَعْنَى النَاتِجِ عَنْ هَذِهِ العَلاَقَاتِ السِّيَاقِيَةِ المُتَشَابِكَةِ-، تُبْنَى أَيْضًا عَلَى المُتَخَيَّلِ، حَيثُ تَنْشَأُ الصُورَةُ كَمُقَوِّمٍ أَسَاسِيٍ مِنْ مُقَومَاتِ الخَطَابِ.

1- الصُورَةُ الشِعْرِيَةُ:

الصُورَةُ الشِعْرِيَةُ -حَدِيثَةُ النَشْأَةِ فِي النَقْدِ الأَدَبِي عَرَبِيًا وعَالَمِيًا- تَبَايَنَتْ الرُؤَى فِي تَحْدِيدِ مَفْهُومِهَا إلى حَدِّ جَعْلِ بَعْضِ النُقَادِ يَقُولُونَ "أَنَّ أَيَّةَ مُحَاوَلَةٍ لإِيجَادِ تَحْدِيدٍ نِهَائِيٍ مُسْتَقِرٍ لِلصُورَةِ غَيْرُ مَنْطِقِيَةٍ، إِنْ لَمْ تَكُنْ ضَرْبًا مِنَ الخَيَالِ"[1]، وذَلِكَ رَاجِعٌ إلى كَونِهَا تَصْدُرُ عَنْ رُؤْيَةٍ خَاصَةٍ بِالمُبْدِعِ، ومَوْقِفٍ ذَاتِيٍ، وطَرِيقَةٍ خَاصَةٍ فِي التَفَاعُلِ مَعَ المُدْرَكَاتِ الحِسِيَةِ أو المُجَرَدَةِ، فَالصُورَةُ إِذَنْ تُعَبِّرُ عَنْ طَبِيعَةٍ فَرْدِيَةٍ مُتَغَيِّرَةٍ، إلى جَانِبِ اِتِصَافِهَا بِالمُرُونَةِ والتَطَوُرِ، وهُو الأَمْرُ الذِي يُكْسِبُهَا فَاعِلِيَةً دَاخِلَ النَصِ الشِعْرِي، إلى دَرَجَةٍ دَفَعَتْ النَاقِدَ (س-دي لويس) (S. De luis) إلى تَشْبِيهِهَا بِـ"سِلْسِلَةٍ مِنَ المَرَايَا مَوضُوعَةً فِي زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ، بِحيثُ تَعْكِسُ المَوضُوعَ، وَهُوَ يَتَطَوَرُ فِي أَوْجُهٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَكِنَّهَا صُوَرٌ سِحْرِيَةٌ، وهِيَ لاَ تَعْكِسُ المَوضُوعَ فَقَطْ، بَلْ تُعْطِيهِ الحَيَاةَ والشَكْلَ، فَفِي مَقْدُورِهَا أَنْ تَجْعَلَ الرُوحَ مَرْئِيَةً لِلعَيَانِ"[2].

وإِذَا كَانَتْ الصُورَةُ الشِعْرِيَةُ بِمَفْهُومِهَا الحَدِيثِ وَافِدَةً إِلَينَا مِنْ النَقْدِ الغَربِي، فَإِنَّ فِي تُرَاثِنَا النَقْدِي، -خَاصَةً البَلاَغِي مِنْهُ- مِنَ النُصُوصِ مَا يُشِيرُ إِلَيهَا وإِلى بَعْضِ مُكَونَاتِهَا وعَنَاصِرِهَا، وإِنَّ أَوَّلَ النُصُوصِ التِي تَتَحَدَّثُ عَن الصُورَةِ، وتَرْبِطُهَا مُبَاشَرَةً بِالشِعرِ، قَولُ الجَاحِظِ "إِنَّمَا الشِعْرُ صِيَاغَةٌ وضَرْبٌ مِنَ النَسِيجِ وجِنْسٌ مِنَ التَصْوِيرِ"[3]، فَالشِعْرُ عِنْدُهُ صِنَاعَةٌ تَتَطَلَّبُ المَهَارَةَ وتَحْتَاجُ إلى إِعْمَالِ الرُؤْيَةِ فِي صِيَاغَةِ الأَلْفَاظِ صِيَاغَةً يَسْتَقِيمُ مَعَهَا المَعْنَى، ويَتَجَسَّدُ بِطَرِيقَةٍ تَصْوِيرِيَةٍ تَتَحَقَّقُ مَعَهَا شِعْرِيَةُ الشِعْرِ، وهَذَا التَصْوِيرُ الذِي يَدْعُو إِلَيهِ الجَاحِظُ، هُو خَاصِيَةٌ فِي الأُسْلُوبِ الشِعْرِي، الذِي يَقُومُ عَلى إِثَارَةِ الإِنْفِعَالِ، واِسْتِمَالَةِ المُتَلَقِي، بِكَيفِيَةٍ خَاصَةٍ فِي صِيَاغَةِ الأَفْكَارِ والمَعَانِي، وبِهَذَا المَفْهُومِ يَكُونُ "الجَاحِظُ" قَدْ سَبَقَ إلى وَضْعِ اللَّبِنَةِ الأُولَى لِمَفْهُومِ الصُورَةِ الشِعْرِيَةِ، فَهُو "يَطْرَحُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي النَقْدِ العَرَبِي فِكْرَةَ الجَانِبِ الحِسِي لِلشِعْرِ، وقُدْرَتِهِ عَلى إِثَارَةِ صُورَةٍ بَصَرِيَةٍ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِي"[4].

أَمَّا "عبد القاهر الجرجاني" -الذِي كَانَ وَاسِعَ الإِطِلاَعِ عَلى الجُهُودِ النَقْدِيَةِ قَبْلَهُ-، قَدْ أَضَافَ لِمَفْهُومِ الصُورَةِ مِنَ التَحْدِيدِ مَا جَعَلَهَا عُنْوَانًا كَبِيرًا لِلشِعْرِ، فَهُو يَقُولُ: "وَلَيْسَت العِبَارَةُ عَنْ ذَلِكَ بِالصُورَةِ شَيْئًا نَحْنُ اِبْتَدَأْنَاهُ فَيُنْكِرُ مُنْكِرٌ، بَلْ هُو مُسْتَعْمَلٌ مَشْهُورٌ فِي كَلاَمِ العُلَمَاءِ، ويَكْفِيكَ قَولُ الجَاحِظِ: إِنَّمَا الشِعْرُ صِيَاغَةٌ وضَرْبٌ مِنَ التَصْوِيرِ"[5]، ويُلِحُ "الجرجاني" عَلى مُصْطَلَحِ التَصْوِيرِ، ويَعْمَلُ عَلى رَبْطِهِ بِنَظَرِيَتِهِ فِي

النَّظْمِ، مُؤَكِدًا أَهَمِيَتَهُ فِي صِنَاعَةِ الشِعْرِ، حتَى يَبدُو أَنَّهُ يُؤْمِنُ "بِأَنَّ الصُورَةَ هِي أَسَاسُ الشِعْرِ، بَلْ هِي الشِعْرُ نَفْسُهُ"[6].

إِنَّ هَذِهِ النُصُوصَ التُرَاثِيَةَ الوَفِيرَةَ، -وعَلى الرُغْمِ مِنْ اِجْتِهَادَاتِ أَصْحَابِهَا، لِتَقْدِيمِ مَفْهُومٍ يَقْتَرِبُ مِنَ المَفْهُومِ الحَدِيثِ لِلصُورَةِ الشِعْرِيَةِ- لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، وهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيهِ "جابر عصفور" بِالقَولِ: "قَدْ لاَ نَجِدُ المُصْطَلَحَ بِهَذِهِ الصِيَاغَةِ الحَدِيثَةِ فِي المَورُوثِ البَلاَغِي والنَقْدِي عِندَ العَرَبِ، ولَكِنْ المَشَاكِلُ والقَضَايَا التِي يُثِيرُهَا المُصْطَلَحُ الحَدِيثُ ويَطْرَحُهَا مَوجُودَةٌ فِي المَورُوثِ، وإِنْ اِخْتَلَفَتْ طَرِيقَةُ العَرْضِ والتَنَاوُلِ أو تَمَيَّزَتْ جَوانِبُ التَرْكِيزِ ودَرَجَاتُ الاِهْتِمَامِ"[7].

1-1- مَفْهُومُهَا:

ظَهَرَتْ الصُورَةُ فِي النَقْدِ الحَدِيثِ لِتَتَجَاوَزَ مُسَمَّيَاتَ البَلاَغَةِ القَدِيمَةِ؛ إِذْ لَمْ يَعُدْ الدَارِسُ يَبْحَثُ "فِي التَشْبِيهِ والاِسْتِعَارَةِ ونَوْعَيهَا، ولاَ المَجَازَ وضُرُوبَهُ"[8]، وإِنَّمَا تَجَاوَزَهُ إلى الصُورَةِ الذِهْنِيَةِ، بِاعْتِبَارِهَا رَمْزًا أو رَابِطًا بَيْنَ عَنَاصِرٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَو شَبَكَةَ عَلاَقَاتٍ مَعْنَوِيَةٍ مُنَسَّقَةٍ، وإِنْ كَانَ الاِهْتِمَامُ بِالصُورَةِ كَبِيرًا، فَإِنَّ تَحْدِيدَهَا يَبْدُو أَمْرًا عَسِيرًا، وذَلِكَ رَاجِعٌ إلى تَنَوُّعِ رُؤَى النُقَادِ واِخْتِلاَفِ مَشَارِبِهِمْ، إلى جَانِبِ كَونَ المُصْطَلَحِ وَاسِعَ الاِسْتِعْمَالِ والدَلاَلَةِ، فَحَيثُ مَا اُسْتُعمِلَ فِي مَجَالٍ مَعْرِفِي اِتَّخَذَ دَلاَلَةً خَاصَةً، واِكْتَسَبَ سِمَاتً مُتَمَيِّزَةً، وقَدْ حَصَرَ مُعْجَمُ أُكْسْفُورُد مَادَةَ (صُورَةٍ) فِي خَمْسِ دَلاَلاَتٍ، هِي: الدَلاَلَةُ اللُغَوِيَةُ والدَلاَلَةُ الذِهْنِيَةُ والدَلاَلَةُ النَفْسِيَةُ والدَلاَلَةُ الرَمْزِيَةُ والدَلاَلَةُ البَلاَغِيَةُ[9].

وَمِنَ المَفَاهِيمِ الأُولَى لِلصُورَةِ الشِعْرِيَةِ، اِعْتِبَارُ الشِعْرَ صُورَةً نَاطِقَةً لِلعَينِ أو كَمَا قَالَ (دي لويس) عَنْهَا بِأَنَّهَا "رَسْمُ قَوَامُهُ الكَلِمَاتُ"[10]، وهُو تَعْرِيفٌ يُمَثِّلُ الدَلاَلَةَ الحَرْفِيَةَ لِمُصْطَلَحِ الصُورَةِ، التِي تَهْتَمُ بِالنَمَطِ البَصْرِي المَرْئِي، ويَذْهَبُ بَعْضُ الدَّارِسِينَ إلى أَنَّ هَذَا الاِرْتِبَاطَ إِنَّمَا يُمَثِّلُ أَشَدَّ مَفَاهِيمِ الصُورَةِ سَذَاجَةً عِنْدَ (دي لويس)[11]، ومَعَ أَنَّ هَذَا الأَخِيرَ يَرَى أَنَّ الصِفَةَ الحِسِّيَةَ لاَزِمَةٌ فِي أَيَّةِ صُورَةٍ، حَتَى فِي أَكْثَرِهَا عَاطِفِيَةً أَوْ عَقْلِيَةً؛ إِلاَّ أَنَّهُ يُعِدُّ ذَلِكَ غَيْرَ كَافٍ؛ لأَنَّ الصِحَفِي مَثَلاً كَثِيرًا مَا يَخْلُقُ صُورًا حِسِيَّةً بِالكَلِمَاتِ، لِذَلِكَ فَهُو يَشْتَرِطُ أَنْ تَكُونَ الصُورَةُ جَوهَرِيَةً فِي القَصِيدَةِ، ويَرْفُضُ أَنْ تَكُونَ مُجَرَّدَ زِينَةٍ قَابِلَةٍ لِلاِنْفِصَالِ عَنْهَا[12].

ولَمْ تَقِفْ الدِرَاسَاتُ النَقْدِيَةُ الغَرْبِيَةُ عِنْدَ رَبْطِ الصُورَةِ بِالبَصَرِ، بَلْ تَجَاوَزَتْ هَذَا الحَدَّ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ المُخَيِّلَةَ لَيْسَتْ بَصَرِيَّةً فَقَطْ، وأَدَّى ذَلِكَ إلى خَلْقِ مَفْهُومٍ جَدِيدٍ لِلصُورَةِ، يَرَى بِـ"أَنَّهَا مُحْتَوىً لِفِكْرٍ يَتَرَكَّزُ فِيهِ الاِنْتِبَاهُ عَلى خَاصَّتِه الحِسِّيَةِ"[13]، وَقَدْ سَاعَدَ عَلى تَغْيِيرِ مَفْهُومِ الصُورَةِ مَا عَرَفَهُ الشِعْرُ الحَدِيثُ مِنْ تَطَوُرٍ، تَطَوُرٌ لَعِبَتْ فِيهِ الصُورَةُ دَورًا حَيَوِيًا فِي مُخْتَلَفِ اِتِجَاهَاتِهِ، حَيثُ لَمْ تَعُدْ وَظِيفَتُهُ الشَرْحَ والتَوظِيفَ، كَمَا كَانَ فِي الشِعْرِ التَقْلِيدِي، بِمَا يُسَاعِدُ عَلى إِيضَاحِ مَضْمُونِهِ، الذِي يُقَدِّمُهُ الشَاعِرُ، إلى جَانِبِ تَمَوقُعِهَا المُسْتَقِلِ بِبِنَائِهَا، دَاخِلَ النَسَقِ العَامِ، الذِي يَخْتَارُهُ الشَاعِرُ لِجَمَالِيَتِهَا، بَلْ غَدَتْ قَوَامَ الشِعْرِ الحَدِيثِ، المُتَأَسِّسَ عَلى الشَكْلِ العُضْوِي، ذِي البِنَاءِ المُتَنَامِي، الذِي لاَ يَقْبَلُ التَجْزِئَةَ، وتَمَّ هَذَا التَحَوُّلُ حِينَ اِنْتَقَلَ الشَاعِرُ مِنْ مُقَرَّرٍ ومُخْبِرٍ، إلى التَعْبِيرِ والإِيحَاءِ مِنْ خِلاَلِ التَصْوِيرِ، وبِذَلِكَ تَحَوَّلَتْ الصُورَةُ إلى "عُنْصُرٍ بِنَائِي مُتَرَابِطٍ، مُتَدَاخِلٍ، مُتَلاَحِمٍ، وَظِيفِي"[14]، وهَذَا مَا جَعَلَ دَورَهَا يَتَجَاوَزُ التَحْدِيدَ والتَبْيِينَ إلى الإِيحَاءِ، الذي لاَ يَقِفُ عِنْدَ دَلاَلَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لأَنَّهَا أَصْبَحَتْ "تُوحِدُ بَينَ الأَجْزَاءِ المُتَنَاقِضَةِ وبَيْنَ الجُزْءِ والكُلِ، إِنَّهَا شَبَكَةٌ مُمْتَدَةُ الخُيُوطِ، تَربِطُ بَينَ نِقَاطٍ كَثِيرَةٍ، وهِي تَنْفُذُ إلى أَعْمَاقِ الأَشْيَاءِ، فتُظْهِرُهَا عَلى حَقِيقَتِهَا"[15].

وَهَذَا مَا جَعَلَ (ج. كوهين) يَرَى بَأَنَّ "الصُورَ البَلاَغِيَةَ لَيْسَتْ مُجَرَدَ زُخْرُفٍ زَائِدٍ، بَلْ إِنَّهَا وُجِدَتْ لِتُكَوّنَ جَوْهَرَ الفَنِ الشِعْرِي نَفْسَهُ"[16]، وبِذَلِكَ أُعْتُبِرَتْ جُزْءًا عُضْوِيًا مُتَجَانِسًا فِي القَصِيدَةِ مَعَ بَقِيَةِ العَنَاصِرِ الأُخْرَى، تَجَانُسًا يُشَكِّلُ تَنَاغُمًا اِنْفِعَالِيًا، يُعَمِّقُ مَعْنَى النَصِ الشِعْرِي، ويُوسِّعُ دَائِرَةَ تَأْثِيرِهِ.

2- الصُورَةُ والخَيَالُ:

يُعْتَبَرُ الخَيَالُ ضَرُورِيًا لِلأَدَبِ عُمُومًا ولِلشِعْرِ خُصُوصًا، فَبِدُونِهِ تَفْقِدُ الأَشْيَاءُ المُعَبَّرُ عَنْهَا طَعْمَهَا وجَاذِبِيَتَهَا، كَمَا يُحَرِكُ فِي المُتَلَقِي حُبَّهَا والمَيْلَ إِلَيهَا والاِفْتِتَانَ بِهَا، فَالخَيَالُ "هُو المَلَكَةُ التِي يَسْتَطِيعُ بِهَا الأُدَبَاءُ أَنْ يُؤَلِفُوا صُوَرَهُمْ مِنْ إِحْسَاسَاتٍ سَابِقَةٍ لاَ حَصْرَ لَهَا، تَخْتَزِنُهَا عُقُولُهُمْ، وَتَظَلُّ كَامِنَةً فِي مُخَيِلَتِهِمْ حَتَى يَحِينَ الوَقْتُ، فَيُؤَلِفُوا مِنْهَا الصُورَةَ التِي يُرِيدُونَهَا"[17]، والخَيَالُ هُو الأَدَاةُ اللاَزِمَةُ لإِثَارَةِ العَوَاطِفِ وتَأْجِيجِهَا، وَرَسْمِ المَعَانِي وتَصْوِيرِهَا، وهُو سَبِيلُ الشَاعِرِ إلى نَفْسِ المُتَلَقِي، حِينَ يَجْعَلُهَا تَطْرَبُ وتَعْجَبُ مِنْ مَشَاهِدِ الصُوَرِ فِي القَصِيدَةِ، ويُعْتَبَرُ بِذَلِكَ عُنْصُرًا أَسَاسِيًا فِي التَصْوِيرِ، ومَصْدَرَ كُلِّ صُورَةٍ شِعْرِيَةٍ؛ إِذْ تُعْتَبَرُ الصُورُ "مَعْرِضًا لإِظْهَارِ مَدَى قُدْرَةِ الشَاعِرِ عَلى اِسْتِخْدَامِ مَلَكَتِهِ التَخْيِيلِيَّةِ"[18]، فَالصُورَةُ قَبْلَ أَنْ تَنْشَأَ وَتَتَشَكَّلَ فِي المَلْفُوظِ اللُغَوِي فَهِي تَتَشَكَّلُ فِي الخَيَالِ، اِنْطِلاَقًا مِنْ مُعْطَيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، يَكُونُ العَالَمُ المَحْسُوسُ فِي طَلِيعَتِهَا.

تَكْمُنُ أَهَمِيَّةُ الخَيَالِ فِي صِنَاعَةِ الصُورَةِ فِي أَنَّ الشَاعِرَ يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلاَلِهِ نَقْلَ الأَشْيَاءِ مِنْ حَالَةِ المُعَانَاةِ إلى حَالَةِ التَجْسِيدِ، فَتَغْدُو ضَرْبًا مِنْ مُشَاهَدَةِ المَشَاعِرِ بَعْدَ تَخَيُّلِهَا، ومِنْ ثَمَّ كَانَتْ الصُورَةُ وَثِيقَةُ الاِرْتِبَاطِ بِالخَيَالِ، بِحَيثُ أَنَّ "أَيَّ مَفْهُومٍ لِلصُورَةِ الشِعْرِيَةِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ إِلاَّ عَلى أَسَاسِ مَكِينٍ مِنْ مَفْهُومٍ مُتَمَاسِكٍ لِلخَيَالِ الشِعْرِي"[19]، وإِنَّ دَوْرَ الخَيَالِ لاَ يَكْمُنُ فَقَطْ فِي اِسْتِعَادَةِ صُوَرِ الأَشْيَاءِ بَعْدَ غِيَابِهَا عَنِ الحَاسَّةِ، عَلى اِعْتِبَارِ أَنَّ الشِعْرَ حَدْسٌ لِلأَشْيَاءِ والصُور، وإِنَّمَا هُو يُسْهِمُ فِي خَلْقِ صُورَةٍ تَتَمَيَّزُ بِتَفَرُّدِهَا وخُصُوصِيَتِهَا، مِمَّا يَجْعَلُهَا تُثِيرُ لَدَى المُتَلَقِي تَدَاعِيَات، لَمْ يَكُنْ مُبْدِعُ الصُورَةِ قَدْ اِهْتَدَى إِلَيهَا أَصْلاً، خَاصَةً إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الصُورَةُ تَقُومُ عَلَى الإِيحَاءِ كَمَا فِي الشِعْرِ الرَمْزِي، وهَذَا مَا جَعَلَ بَعْضَ الدَارِسِينَ يَرَى أَنَّ "قِيمَةَ الخَيَالِ لَيسَتْ فِي كَوْنِهِ جَدِيدًا أَو قَدِيمًا، وإِنَّمَا قِيمَتُهُ فِي أَنَّهُ يُصَوِرُ الحَيَاةَ مِنْ حَولِنَا، فِي تَنَاسُقٍ وتَرَابُطٍ واِتِّحَادٍ، بِحَيثُ يَأْخُذُ المُبْدِعُ المُتَلَقِينَ إلى سَمَاوَاتٍ أَرْحَبٍ، وإلى عَوَالِمِ أَجْمَلٍ"[20].

2-1- الخيال ووحدة القصيدة العضوية:

كَمَا يُسْهِمُ الخَيَالُ فِي تَحْقِيقِ الوِحْدَةِ العُضْوِيَةِ لِلعَمَلِ الفَنِي، وهِي خَصِيصَةٌ شِعْرِيَةٌ نَادَى بِهَا الرُومَانسِيُونَ؛ إِذْ وُجِدَتْ الصُورَةُ -حَسَبَ رَأْيِهِمْ- لِهَذِهِ الوَظِيفَةِ، بِاعْتِبَارِهَا جُزْءًا مُهِمًا فِي بِنَاءِ النَصِ الشِعْرِي، يَقُولُ (كولردج) مُؤَكِدًا هَذِهِ النَظْرَةَ: "الخَيَالُ هُو القُوةُ التِي بِوَاسِطَتِهَا تَسْتَطِيعُ صُورَةٌ مُعَيَّنَةٌ أَو إِحْسَاسٌ وَاحِدٌ أَنْ يُهَيمِنَ عَلَى عِدَّةِ صُوَرٍ أَو أَحَاسِيسٍ فِي القَصِيدَةِ، فَيُحَقِّقُ الوِحْدَةَ فِيمَا بَيْنَهَا، بِطَرِيقَةٍ أَشْبَهَ بِالصَهْرِ"[21]، وبِذَلِكَ تَكُونُ العَلاَقَةُ بَينَ الخَيَالِ وَوِحْدَةِ العَمَلِ الفَنِي فِي النَصِ الشِعْرِي الحَدِيثِ عَلاَقَةُ تَرَابُطٍ سَبَبِي، "فَوِحْدَةُ العَمَلِ لاَ تَتَحَقَّقُ بِدُونِ خَيَالٍ، كَمَا أَنَّهُ لاَ وُجُودَ لِخَيَالٍ بِدُونِ تَحْقِيقٍ لِهَذِهِ الوِحْدَةِ(*)"[22].

وبِذَلِكَ يُعَدُّ الخَيَالُ تَعْبِيرًا عَنْ النُضْجِ الفَورِي والمُفَاجِئِ لِجَمِيعِ مُدْرَكَاتِ الفَنَانِ المُبْدِعِ، التِي كَانَتْ مُخَزَّنَةً بَعْدَ أَنْ وَلَّدَتْهَا تَجَارُبٌ حِسِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ وعَدِيدَةٍ، ثُمَّ تَرَاكَمَتْ فِي الذَاكِرَةِ، تَنْتَظِرُ لَحْظَةَ التَحْفِيزِ، لِتَطْفُو إلى سَطْحِ الذَاكِرَةِ، مُخْتَرِقَةً فِتْرَةَ الرَّاحَةِ والكُمُونِ، وعِنْدَهَا تُسَيْطِرُ هَذِهِ المُدْرَكَاتُ القَبْلِيَّةُ عَلى جَوانِبِ التَفْكِيرِ، وتَتَحَوَّلَ إلى فِكْرَةٍ مُلِحَّةٍ تُؤَرِّقُ المَبْدِعَ وتُقْلِقَهُ، وتَدْفَعُهُ إلى التَعْبِيرِ عَنْهَا، وعَادَةً مَا يَكُونُ العُنْصُرُ المُثِيرُ هُو

المُحَفِّزُ لِظُهُورِ هَذِهِ المُدْرَكَاتِ، وهُنَا تَكْمُنُ فَاعِلِيَةُ الخَيَالِ وأَهَمِيَتُهُ، بِالنِسْبَةِ لِلصُورَةِ، التِي تُمَثِلُ مَيْدَانَهُ الفَسِيحَ لِمُمَارَسَةِ حَرَكَتِهِ، ولِهَذَا عُدَّت الصُورَةُ "أَدَاةَ الخَيَالِ وَوَسِيلَتُهُ ومَادَتُهُ الهَامَةُ، التِي يُمَارِسُ بِهَا ومِنْ خِلاَلِهَا فَاعِلِيَتَهُ ونَشَاطَهُ"[23]، وعُدَّ الخَيَالُ مَصْدَرَ الصُورَةِ الأَوَّلَ، الذِي لاَ تَسْتَطِيعُ الإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُ.

3- المَصَادِرُ الأُخرَى لِلصُورَةِ:

لَيْسَ الخَيَالُ هُو المَصْدَرَ الوَحِيدَ، الذِي تَنْهَلُ مِنْهُ الصُورَةُ، ومِنْ خِلاَلِهِ تَتَشَكَّلُ وتَتَبَلْوَرُ، ذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ القِيَامَ بِهَذَا الدَورِ مَا لَمْ تَتَظَافَر مَعَهُ مَصَادِرٌ أُخْرَى، يَكُونُ فِي اِجْتِمَاعِهَا وتَجَاسُرِهَا خَلْقُ هَذِهِ الصُورَةِ، التِي تُعَدُّ خَصِيصَةً جَوهَرِيَةً فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ الشِعْرِيَةِ، فَإِلى جَانِبِ الخَيَالِ نَجِدُ الوَاقِعَ مَصْدَرًا هَامًا لِلصُورَةِ، التِي تَتَشَكَّلُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ، تَمْتَدُّ بَينَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَبْعَادِ، بِحَيثُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ وتَظْهَرَ عَلى سَطْحِ القَصِيدَةِ إِلاَّ مِنْ خِلاَلِ حَيِّزٍ مَكَانِي، وعِنْدَ هَذَا تَغْدُو فَائِدَةُ المَكَانِ أَنَّهُ يُحَوِّلُ الأَدَبَ إلى مَوضُوعٍ أو مَادَةٍ فِي أَجْمَلِ مَعَانِيهَا، وبِهَذَا يُسَاعِدُنَا عَلى بَلْوَرَةِ التَجْرُبَةِ الشِعْرِيَةِ بِشَكْلٍ أَكْثَرَ حَيَوِيَةً وإِبْدَاعًا، كَمَا "يَمُدُّنَا بِمِحْوَرٍ مَرْكَزِي لِمَجْمُوعَةِ العَنَاصِرِ القَابِلَةِ لِلمُشَارَكَةِ"[24].

وقَدْ رَبَطَ النُقَادُ المَكَانَ بِعَمَلِيَةِ الإِدْرَاكِ، أو مَا يُسَمَى بِرُؤيَةِ عَنَاصِرِ العَمَلِ الأَدَبِي، فَدُونَ الإِدْرَاكِ لاَ تَكُونُ الرُؤيَةُ مُجْدِيَةً، أَمَّا إِذَا تَمَّ الإِدْرَاكُ تَحَقَّقَتْ الرُؤْيَةُ، بِمَا يُمَكِّنُ مِنْ إِتْمَامِ بِنَاءِ عَنَاصِرِ الصُورَةِ، وجَعْلِ كُلِّ مِنْهَا فِي وَضْعِهِ المَكَانِي المُنَاسِبِ دَاخِلَ البِنَاءِ الكُلِي، ومِنْ ثَمَّ نَظَرُوا إلى الصُورَةِ عَلى أَنَّهَا "اِنْطِبَاعٌ أو اِسْتِرْجَاعٌ أو تَذَكُرٌ لِخِبْرَةٍ حِسِّيَةٍ أو إِدْرَاكِيَةٍ، لَيسَتْ بِالضَرُورَةِ بَصَرِيَةٍ"[25].

يُرْجِعُ النُقَادُ أَهَمِيَّةَ الوَاقِعِ إلى كَونِهِ المَصْدَرَ الذِي تَسْتَمِدُ مِنْهُ الصُورَةُ مَضْمُونَهَا، فَفِي جَانِبِهِ الحِسِي يَعْكِسُ الصُورَ، التِي تَرتَدُ مَوضُوعَاتُها إلى مَجَالاَتِ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَةِ اليَومِيَةِ، حَيثُ يَتَنَوعُ هَذَا الجَانِبُ بِتَنَوُّعِ مَجَالاَتِ الحَيَاةِ، وأَمَّا جَانِبُهُ الذِهنِيُ فَيَتَجَسَّدُ فِي نَوعَينِ مَنَ المُؤَثِرَاتِ، هُمَا: المُؤَثِرَاتُ النَفْسِيَةُ والإِنْفِعَالِيَةُ المُتَبَايِنَةُ، التِي تَكُونُ اِنْعِكَاسًا لِمُخْتَلَفِ التَجَارُبِ، وحَرَكَةِ الوَاقِعِ فِي ذَاتِ الشَاعِرِ، والمُؤَثِرَاتُ الفِعْلِيَةُ، التِي تُتَرْجِمُ ثَقَافَتَهُ وخِبْرَاتَهُ الحَيَاتِيَةَ، وإِنَّ اِتِّحَادَ الجَانِبَينِ: الحِسِّي والذِهْنِي هُو المُعِينُ الذِي تَنْبُعُ مِنْهُ الصُورَةُ.

وإلى جَانِبِ الخَيَالِ والوَاقِعِ كَمَصْدَرَينِ أَسَاسِيَينِ، تُوجَدُ مَصَادِرٌ ثَانَوِيَةٌ، تُسَاعِدُ هِيَ أَيْضًا فِي تَشْكِيلِ الصُورَةِ، خَاصَةً فِي الشِعرِ المُعَاصِرِ، ومِنْهَا:

أ-المَورُوثُ الثَقَافِي: بِأَبْعَادِهِ المُخْتَلِفَةِ الدِينِيَةِ والتَارِيخِيَةِ والسِيَاسِيَةِ، حَيثُ أَضْحَى هَذَا المَورُوثُ الثَقَافِيُ مَادَةً خِصْبَةً يَرْحَلُ إِلَيهَا الشُعَرَاءُ، بَحْثًا وتَنْقِيبًا عَنِ الخَامَاتِ المُنَاسِبَةِ لِتَشْكِيلِ صُورِ قَصَائِدِهِمْ، سَواءٌ بِالوُقُوفِ عِنْدَ أَبْرَزِ الأَحْدَاثِ أو بِاسْتِدْعَاءِ الشَخْصِيَاتِ التَارِيخِيَةِ، مِمَّا يُمَثِّلُ رُمُوزًا حَيَّةً يُؤَدِّي تَوْظِيفُهَا إلى تَكْثِيفِ دَلاَلاَتِ النَصِ وتَوهُجِهَا، مِنْ خِلاَلِ هَذِهِ الصُورَةِ المُضِيئَةِ، التِي تُعَمِّقُ المَعْنَى، وتَنْحَرِفُ بِهِ إلى الغُمُوضِ، فِي اِنْزِيَاحٍ دَلاَلِي يَدْفَعُ إلى التَأوِيلِ، ويَقُودُ إلى تَكْثِيفِ الفَاعِلِيَةِ الشِعْرِيَةِ لِلنَصِ.

ب-التُرَاثُ الأَدَبِيُ: يُعَدُّ التُرَاثُ الأَدَبِي بِمُخْتَلَفِ نُصُوصِهِ -خَاصَةً الشِعْرِيَةَ مِنْهَا-، مِنْ ضِمْنِ المَصَادِرِ الثَانَوِيَةِ لِلصُورَةِ الشِعْرِيَةِ، ذَلِكَ أَنَّ الطَبِيعَةَ الاِنْفِتَاحِيَةَ لِلنَصِ الشِعْرِي الحَدَاثِي تَجْعَلُهُ يَتَقَاطَعُ مَعَ تِلْكَ النُصُوصِ التُرَاثِيَةِ، ويَجْتَزِئُ مِنْ عَنَاصِرِهَا، مَا يُسْهِمُ فِي بِنَاءِ صُورَتِهِ الشِعْرِيَةِ.

4-تَشْكِيلُ الصُورَةِ الشِعْرِيَةِ:

إِذَا كَانَت الصُورَةُ الشِعْرِيَةُ تُعَبِّرُ عَنْ الطَبِيعَةِ الفَرْدِيَةِ لِمُبْدِعِهَا، وتُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ المُقَوِّمَاتِ الفَنِيَةِ لِلقَصِيدَةِ، فَكَيْفَ تَتَشَكَّلُ حَتى يَكُونَ لَهَا ذَلِكَ البَرِيقُ الفَنِيُ والأَثَرُ الأَدَبِيُ العَظِيمُ فِي النُفُوسِ؟ حَتْمًا أَنَّهَا تَتَشَكَّلُ بِحَسَبِ الرُؤَى، التِي يَصْدُرُ عَنْهَا المُبْدِعُ، وبِحَسَبِ مَوقِفِهُ الذَاتِي وطَرِيقَةِ تَفَاعُلِهِ مَعَ المُدْرَكَاتِ الحِسِيَّةِ والذِهْنِيَةِ، ومِنْ ثَمَّ كَانَ تَشْكِيلُهَا مُعْضِلاً ومُثِيرًا لِلتَسَاؤُلِ بِاسْتِمْرَارٍ، عَنِ المَعَايِيرِ التِي تُعْتَمَدُ فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ "مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَتِمُّ نِهَائِيًا بِغَيرِ مَعَايِيرٍ"[26]، فَالصُورَةُ لَيسَتْ عَمَلِيَةً تَشْكِيلِيَةً مَحْضَةً، بَلْ هِيَ "تَرْكِيبَةٌ عَقْلِيَةٌ، تَنْتَمِي فِي جَوهَرِهَا إلى عَالَمِ الفِكْرَةِ، أَكْثَرَ مِنْ اِنْتِمَائِهَا إلى عَالَمِ الوَاقِعِ"[27]، وفِي تَعَامُلِهَا مَعَ صُورَةِ المَكَانِ، وتَجْسِيدِهَا لأَبْعَادِهِ وخُصُوصِيَاتِهِ، فَإِنَّهَا لاَ تَظْهَرُ "عَلى أَنَّهَا تُمَثِّلُ المَكَانَ المَقِيسَ، بَلْ المَكَانَ النَفْسِيَ"[28]، لِذَلِكَ نَجِدُ الشَاعِرَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَتَجَاوَزُ نَقْلَ المَكَانِ كَمَا هُو؛ لأَنَّهُ لاَ يُمَارِسُ الرَسْمَ بِالكَلِمَاتِ، بَلْ يَعْمَدُ إلى تَفْتِيتِ تِلْكَ الأَشْيَاءِ الوَاقِعَةِ، التِي تَقَعُ عَلَيهَا عَيْنَاهُ فِي المَكَانِ، لِيُفْقِدَهَا مَا تَمْتَلِكُ مِنْ تَمَاسُكٍ بِنَائِيٍ يَتَرَاءَى لِلعَيَانِ، فَلاَ يُبقِي مِنْهَا إلاَّ عَلى صِفَاتِهَا.

وإِلى جَانِبِ المَكَانِ تَقُومُ الصُورَةُ بِتَكْثِيفِ الزَمَنِ والِتِقَاطِ اللَّحَظَاتِ المُنَاسِبَةِ مِنْهُ، وهِيَ بِذَلِكَ تَتَجَاوَزُ القَوانِينَ التَقْلِيدِيَةَ لِلزَمَنِ، لِتُقَدِّمَ –حَسَبَ عَزْرَا بَاونَدْ – "تَرْكِيبَةً عَقْلِيَةً وعَاطِفِيَةً فِي لَحْظَةٍ مِنَ الزَمَنِ"[29]، وهِيَ فِي تَشْكِيلِهَا تَتَخَطَّى حُدُودَ الأَشْيَاءِ لِتَصِلَ إِلَى الحَقِيقَةِ الشِعْرِيَةِ الكَامِنَةِ فِي أَعْمَاقِ النَفْسِ المُبْدِعَةِ "مُسْتَخْدِمَةً فِي ذَلِكَ مَا اِكْتَسَبَتْهُ مِنْ طَاقَاتٍ فَنِيَةٍ جَدِيدَةٍ، تُسَاعِدُ الشَاعِرَ فِي اِكْتِشَافِ الجَوانِبِ الغَامِضَةِ وإِضَاءَتِهَا"[30]، ومِنْ ثَمَّ تُسْهِمُ فِي إِثْرَاءِ التَجْرُبَةِ الشِعْرِيَةِ وتَعْمِيقِهَا، حتَى يَسْقُطَ مِنَ الأَذْهَانِ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ أَنَّ الصُورَ الشِعْرِيَةَ عَنَاصِرُ زِينَةٍ، بَلْ يَتَّضِحُ أَنَّهَا جَوهَرُ اللُغَةِ الحِسِيَّةِ، التِي يَكْتَسِبُ بِهَا الشِعْرُ قُدْرَتَهُ عَلى التَأْثِيرِ الجَمَالِي والرُؤْيَوِي، وهِيَ فِي النَصِ الشِعْرِي أَدَاةُ اِنْسِجَامٍ بَيْنَ عَنَاصِرِهِ، مِنْ حَيث قُدْرَتِهَا عَلى الرَبْطِ بَيْنَ الفِكْرَةِ والاِنْفِعَالِ رَبْطًا تَصْوِيرِيًا، يَتَحَقَّقُ بِهِ لِلقَصِيدَةِ بِنَاؤُهَا العُضْوِيُ، الذِي يَتِمُّ بِالتَفَاعُلِ بَينَ الفِكْرَةِ وعَنَاصِرِ تَصْوِيرِهَا.

وبِمِثْلِ هَذِهِ السِمَاتِ الفَنِيَّةِ، التِي يَقُومُ عَلَيهَا تَشْكِيلُ الصُورَةِ الشِعْرِيَةِ، تَتَضِحُ الصُورَةُ التِي يَنْشُدُهَا الشُعَرَاءُ، فَهِيَ "الصُورَةُ التِي تُخَلْخِلُ بِنْيَةَ التَجْرُبَةِ الشِعْرِيَةِ، مُنْتَشِرَةً فِي اِتِجَاهَينِ مُتَنَاغِمَينِ: اِتِجَاهُ الدَلاَلَةِ المَعْنَوِيَةِ، واِتِجَاهُ الفَاعِلِيَةِ عَلَى مُسْتَوى النَفْسِ، مُسْتَوَى الإِثَارَةِ لِمَا بَيْنَ أَشْيَاءِ العَالَمِ والذَاتِ الإِنْسَانِيَةِ، مِنْ فِعْلٍ واِسْتِجَابَةٍ وتَنَافُرٍ وتَعَاطُفٍ"[31]، إِنَّ الصُورَةَ الشِعْرِيَةَ تُعَدُّ تَرْكِيبَةً غَرِيبَةً مُعَقَّدَةً؛ لأَنَّهَا فِي جَوهَرِهَا مَعْنَىً يُدْرِكُهُ الذِهْنُ، بِوَاسِطَةِ مَلْفُوظٍ مِنَ الكَلاَمِ، يَقُومُ الشَاعِرُ بِنَظْمِهِ فِي شَكْلٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الشِعْرِ، فَيَغْدُو عُنْصُرًا قَارًا فِي العَمَلِ الشِعْرِي، يَكْتَسِبُ مَا بِهِ يَكُونُ شِعْرِيًا، والذِي يَكُونُ بِهِ المَلْفُوظُ شِعْرًا هُوَ الذِي يَجْعَلُنَا نَحْكُمُ عَلَى الصُورَةِ إِنْ كَانَتْ شِعْرِيَةً أَوْ غَيْرَ شِعْرِيَةً.

هَوامِشُ المُحَاضَرَةِ:

1-بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 19.
2-س دي لويس: الصورة الشعرية، تر: أحمد ناصيف الجناني وآخرين، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982، ص ص 90-91.
3-الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، ط03، 1969، ج03، ص 132.
4-جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 286.
5-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981، ص 389.
6-إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط05، 1986، ص 434.
7-جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، مرجع سبق ذكره، ص 07.
8- مرتاض عبد المالك: بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت ، ص 50.

9- البطل علي: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت، ط03، ص 172.
10- فهمي ماهر حسن: تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط01، 1981، ص 232.
11- البطل علي: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، مرجع سبق ذكره، ص 172.
12-س. دي لويس: مرجع سبق ذكره، ص 22.
13- فهمي ماهر حسن: تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص 233.
14-خليل الموسى: الحداثة في حركة الشعر المعاصر، إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت، ص 105.
15-أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط02، 1978، ص ص 154-155.
16-جان كوهين: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط01، 1986، ص 46.
17-شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط06، د.ت، ص 167.
18-أحمد علي دهمان: الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا، دار طلاس للطباعة، دمشق، سوريا، ط01، 1986، ص 329.
19-جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، مرجع سبق ذكره، ص 14.
20-إبراهيم أمين الزرموني: الصورة الفنية في شعر علي الجارم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبده غريب)، مصر، 2000، ص 147.
21-محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 97.
(*)-يقصد بها وحدة الشعور أو العاطفة أو الإحساس.
22-السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث -مقوماته الفنية وطاقاته الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002. ص ص 81-82.
23- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، مرجع سبق ذكره، ص 140.
24- فهمي ماهر حسن: تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص 239.
25-المرجع نفسه: ص 240.
26-عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1981، ص 120.
27- عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط04، 1988، ص 66.
28-المرجع نفسه: ص 67.
29-المرجع نفسه: ص 71.
30-محمد صابر عبيد: مرايا التخييل الشعري، دار الكتاب العالمي، عمان، الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط01، 2006، ص 171.
31-كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي: دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط04، 1995، ص65.